الباب الأول

من عالم النور إلى بحر الظلمات

« يا أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول لكم : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم ، وتستنصروني فلا أنصركم ، وتسألوني فلا أعطيكم » .
حديث شريف

في الصفحات التالية جولة عجلى في فروع من التاريخ ، تعبّر بها وقائع تحيّرناها ، عن أسباب الفساد الذي أصاب المسلمين من سقطات الولاة وفرطات الجماعة وإغضاء أهل العلم ، يتضح منها للناس أن الوسيلة لصلاح بالهم هي العودة إلى الأمر الأول : أمر النبي ﷺ وصحبه ، حيث الشريعة مطبقة يعضون عليها بالنواجذ ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا . ولما نسي المسلمون الله أنساهم أنفسهم ، وعلا شأن الشعوبيين والفرس والأتراك ، وأوشك المجتمع الإسلامي أن يكون غير إسلامي !

وتساءل المسلمون متى نصر الله ؟ وكان الجواب ظهور أحمد بن تيمية في القرن السابع ومحمد ابن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر للهجرة .

والكلام في هذا الباب فصول :

الأول : خاص بمسيرة التاريخ كما تتابعت بها القرون حتى كُبكب المسلمون في أمور يكفرها دينهم أو يبدعها ، تُعطل الدأب وتُطفئ شعلة الفكر وتربطه في داخل حلقة مفرغة من الوهم الذي يقتل الأمم .

والثاني : خاص بالفلسفات التي ينتسب بها بعضٌ للتصوف . والصوفية الصلحاء منها براء . وكيف أدخلت على الإسلام وأوقفت ازدهار مجتمعات المسلمين .

والثالث : خاص بانتصار ابن تيمية ومدرسته للمنهج السلفي وانتصاره به .

obeikandl.com

الفصل الأول

من خير القرون إلى ظهور البدع

« خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »
حديث شريف

كانت السنوات الأولى من عمر الإسلام سنوات تكوين وتمكين بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح واجتماع الكلمة ، وانطلاق العرب بالإسلام خارج جزيرتهم كانتشار الضوء بعد انفجار الفجر فى كل الأرجاء .

وخلف الصديق صاحبه ﷺ . ثم استخلف الفاروق . واختار أهل الشورى عثمان بعد عمر فبايعه المسلمون .

ثم بايعوا عليا بعد مقتل عثمان سنة ٣٥ إلا كبراء بنى أمية وعلى رأسهم معاوية فى الشام وثلة ممن شايعوهم من الصحابة .

ودب دبيب الفرقة ، فدارت رحى الحرب بين على وبين طلحة والزبير فى موقعة (الجمل) وأظفره الله بهما ، فصفح الصفح الجميل ، ثم تلاقى علىٌّ وجندُ الشام فى موقعة (صفين) . وأدرك معاوية وبنو أمية معه أنهم منهزمون . فرفعوا المصاحف على شبا الرماح طالبين (تحكيم كتاب الله) .

ولم يكن لأمير المؤمنين معدّى عن أن يقبل التحكيم ، فخرج عليه من جيشه (الخوارج) . وهم يسمون كذلك : إما لخروجهم فى سبيل الله كما وهموا ، وإما للخروج على الجماعة كما فهم المسلمون ؛ وهزمهم أمير المؤمنين (بالنهروان) ، واستشهد بطل الإسلام ، فى كبريات حروبه ، بطعنة (خارجى) فى المسجد سنة ٤٠ .

وبايع الناس بعده ابنه الحسن . فلبث أشهراً ، ثم تصالح هو ومعاوية ، وقامت دولة بنى أمية سنة ٤١ لتبقى تسعين عاماً ونيفا حتى سنة ١٣٢ (٦٦٩ - ٧٤٩ م) .

أسى معاوية الناسَ بكيسهِ وسخائه خروجَه على أمير المؤمنين وقسوته على شيعته ، فلم يستعمل الحسام كلما أجزأه الكلام ، وقد طالما أجزأه . وكان نضيج الرأى يفطن للمأتى البعيد للخطر . فشغل جيوش المسلمين بالجهاد ، فكان فيها الحسين بن على والعبادلة [1] وصحابة الرسول ﷺ .

(١) جمع عبد الله العبادلة الأربعة ابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن الزبير .

وكان المسلمون ينتصرون .

وكانت سنواته العشرون سنوات رخاء وفتوح فى البر والبحر وفى أنفس الناس . يراح يأسو الجراح ، فلم يأكل كبدَه الضغنُ . وأنزل الله فى قلبه السكينة ، وانتقلت من قلبه إلى الجمهور ، وكانت نقلة الأمة من أعاصير الفتن إلى عصر السلام مأثرته .

وربما أجزأ عن الشروح أو فلسفة التاريخ إشهاد الوقائع . وقد يكفى منها واقعة واحدة من حياته اليومية توضح فلسفته وطريقته أو سياسته . والوقائع أشياء وأشخاص تتكلم . والناس لها أسمع وأبصر :

روى جلساؤه فى دمشق ما قالته (الزرقاء بنت عدى) أيام كانت تحرض الكتائب من جيش أهل الكوفة فأمر الوالى أن يسيّرها إليه وأن يكرمها . . حتى إذا جاءته قال : كيف حالك يا خالة وكيف مسيرك إلينا ؟ قالت : خيرمسير . قال : ما حملك على أن تحرضى علينا ؟ قالت يا أمير المؤمنين : قد مات الرأس وبتر الذنب ، والدهر ذو غير . ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر .

قال : هل تحفظين ما قلت ؟ قالت : لا

قال : لله أبوك ! لقد سمعتك تقولين :

(أيها الناس ، إن المصباح لا يضيء فى الشمس ، وإن الكواكب لا تضىء مع القمر ، وإن البغل لا يسبق الفرس ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . . إنه لا يستوى المحق والمبطل . أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا . لا يستوون . فالنزال النزالَ ، والصبرَ الصّبر ، ألا وإن خضاب النساء الحنّاء وخضاب الرجال الدماء !) .

يا زرقاء ، أليس هذا تحريضك ؟

قالت : لقد كان ذلك .

قال : لقد شاركت عليا فى دم سفكه

قالت : أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتك ، مثلك يبشر بخير ويسر جليسه !

قال : أوقد سرك ذلك ؟

قالت : والله لقد سرنى وأنّى لى بتحقيقه .

قال : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إلىّ من حبكم له فى حياته . فاذكرى حاجتك .

قالت : يا أمير المؤمنين ، إنى آليت على نفسى : لا أسأل أحداً بعد علىّ حاجة .

قال : لقد أشاروا علىّ بقتلك .

قالت : لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته .

قال : كلا ، لنعفون عنك .

قالت : يا أمير المؤمنين كرم منك ، ومثلك من قدر فعفا ، وتجاوز عمن أساء . وأعطى من غير مسألة !

فأعطاها كسوة ، وأقطعها ضيعة !

وولى بعد معاوية ابنه يزيد (٦١ - ٦٤) . وفعل يزيد الأفاعيل بالمسلمين : من استشهاد الحسين بن على فى كربلاء واستشهاد ستة إخوة معه وخمسة من حَفَدَة فاطمة . واثنين من أبناء عبد الله بن جعفر زوج زينب بنت على ، إلى وقعة الحَرّة بالمدينة سنة ٦٣ حيث استشهد (أهل بدر) فى محاربة يزيد ، فلم يبق على الأرض بدرى واحد ! إلى حرق جيشه للكعبة وهو ينسحب من حصار مكة بعد موته . وهى حوادث ثلاثة وقعت فى سنوات ثلاث هى كل حكمه ، أو لعنات ثلاث تنزلها السماء بدولته . وتنذر بها المسلمين ليبصُروا بآثار الفرقة والصراع على السلطة !

وكانت النذر أقرب إلى قلب معاوية بن يزيد ؛ إذ خَلَفه فنزل عن الخلافة ، وأعلن أن آباءه كانوا جائرين . فكان هذا حكْماً عليهم من أنفسهم .

* * *

وبايع بنو أمية من بينهم مروان بن الحكم وخلفه ابنه عبد الملك فأقر أخاه عبد العزيز بن مروان أميراً على مصر ، وتتابع الملك العضود فى أبناء عبد الملك الأربعة نحو الأربعين عاما وإن توسط عقدَها ثلاثون شهراً أو نحوها من خلافة راشدة لابن عمهم وزوج أختهم عمر بن عبد العزيز . بدأها باستدعاء الجيش الذى يحاصر القسطنطينية إدراكاً منه أن (المسلمين أحب إلىّ من الروم وما حوت) كما قال .

وضرب عمر من نفسه مثلاً للمسلمين بالتقوى والزهد والبدء بنفسه وأهله فى رد المظالم . ولما قدر على نفسه وأهله قدر على الناس : فأقام الحدود وأغنى المحتاجين ، فلم يوجد عند توزيع الصدقات من يستحق الصدقة سواء فى المدينة المنورة أو فى أفريقية ! وأصبح الناس إذا تلاقوا سأل بعضهم بعضاً عن عباداتهم وأورادهم فى لياليهم . وسار سيرة جده لأمه عمر بن الخطاب (١) إذ سئل : كيف تخرب القرى وهى عامرة ؟ فأجاب : (إذا علا فجّارُها أبرارها وساد منافقوها) ، فأدنى الأبرار منه وأقصى عنه أهل النفاق ، وأدق النظر فى اختيار عماله .

ولم يكتف بتطبيق الشريعة ، بل جعل ولاية الحكم للفقهاء : فأبو الزناد صار كاتبا

---

(١) رد عمر للمسلمين ما أخذه بنو أمية ومروان من أموالهم . فافتقر بنو أمية ومروان ، فطلبوا إليه أن يبرحوا دمشق سعياً للرزق ، فأذن لهم . وأنفذوا إليه عمته . قالت له : أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً . قال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة لا وقانى الله شره . . فعادت إلى قومها تقول لهم : تزوجون ابنكم عبد العزيز من آل عمر فإذ نزع ابنه إلى الشبه جزعتم !

لعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب فى خراج العراق ، والحسن البصرى صار قاضيا للبصرة . وميمون بن مهران تولى خراج الجزيرة ، وسليمان بن يسار تولى سوق المدينة . وأبو بكر بن حزم صار قاضى المدينة وأميرها ، ويحيى بن سعيد هو القائل : (بعثنى عمر على صدقات أفريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد فقيراً ! ولم نجد من يأخذها ! قد أغنى عمر الناس فاشتريت رقاباً فأعتقتهم) .

وحدّث رجل من ولد زيد بن الخطاب قال : (إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصف السنة . فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، يتذكر من يستحقه منهم فما يجده فيرجع بماله . قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس !) . وهو من قبل أن يغنيهم كان يبعث إليهم فى أمصارهم من يعلمونهم .

وأهمه تفرق السنن فى صدور الحفظة . فكلف ابن شهاب الزهرى وأبا بكر بن حزم جمعها . وذات يوم دخل عليه غلام مع أبيه فسأله : ماذا تعلمه ؟ قال الفقه ، قال : علمه الفقه الأكبر ، قال : وما الفقه الأكبر؟ قال : القناعة وكف الأذى .

وكان من فقهه الأكبر يذكر الناس بغضبات السماء ، ليعملوا صالحاً ترضاه ، ويتذكروا أسباب نعمة الله . فيكتب إلى عماله : (أما بعد : فهذا الرجف (زلزال) شىء يعاتب الله عز وجل به العباد ، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا فى يوم كذا وكذا وشهر كذا وكذا فمن كان عنده شىء فليتصدق به فإن الله تعالى يقول : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) . وقولوا كما قال آدم : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) .

هذه الشهور الثلاثون من حكم عمر حجة لله على خلقه باقتدار رجل واحد ، فى أقصر زمن ، على إصلاح ما تفسده دول بتمامها ، مهما استحكم الفساد واستغلظ ، إذا صدقت النية ، فإنه عندئذ يجد الرجال الصدّق والطرائق القاصدة ، ومن خلصت نيته لله فالله معه .

ويذكر المسعودى فى مروج الذهب أن صاحب القسطنطينية إذ بلغه نعيه نزل عن سريره وبكى ، وقال لوفد من العرب ذهب للفداء بين الروم والمسلمين : لقد بلغنى من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيى الموتى ! ولقد كانت تأتينى أخباره باطنا وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خلواته لطاعة مولاه . ولم أعجب لهذا الراهب الذى ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته . ولكنى عجبت لهذا الراهب الذى صارت الدنيا تحت قدمه ، فزهد فيها حتى صار مثل الراهب[1] .

* * *

(١) قال أسلم : اتكأ عمر بن الخطاب على جدار فى جوف الليل وهو يحرس فى المدينة ، فسمع امرأة تقول لبنتها : قومى

أما حديث هذه الدولة السياسى من قبل عمر ومن بعده فيمكن إجماله فى أنها رفعت رايات الإسلام فوق جبال القارة الهندية فى قلب آسيا فى الشرق ، وفى جبال الأندلس وأطراف أوربة على شواطئ المحيط الأطلنطى فى الغرب ، على أيدى محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم فى آسيا وموسى بن نصير وطارق بن زياد فى أوربة . وفى الأندلس استقر المسلمون قروناً ثمانية انتقلت فيها علوم المسلمين إلى أوربة المسيحية ؛ لتختتم العصور الوسطى وتبدأ العصور الحديثة ، وينتقل المنهج الإسلامى الذى جاء به القرآن إلى عصور النهضة فتبلغ به الحضارة الغربية مبالغها الحالية .

كما يمكن إجمال تاريخ الحكم والظلم والعقاب والعذاب من السماء فى حروب وثورات شغلت تاريخ بنى أمية وبنى مروان حصّلها قول عبد الملك بن عمير الليثى لعبد الملك بن مروان إذ هو خليفة : (رأيت فى قصر الإمارة بالكوفة رأس الحسين بن على رضى الله عنهما على ترس ، ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يدى المختار بن عبيد ، ثم رأيت رأس المختار بن عبيد بين يدى مصعب ابن الزبير ، ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير بين يدى عبد الملك بن مروان ، فتحدثت بذلك إلى عبد الملك فتطير منه) .

أما الرأس الأول فرأس ريحانة النبى ﷺ . وأما الرؤوس الثلاثة الأخرى فرؤوس قواد أضرموا نيران الحروب على بنى أمية وبنى مروان والأخير منهم كان صديقاً لعبد الملك ومع ذلك سيّر إليه من قتله ! .

وكان عبد الملك معدوداً فى الفقهاء حتى ولى السلطة فقَسَّت قلبه . والحجاج واحد من ولاته . وهو الذى ضرب الكعبة فى حرب عبد الملك مع ابن الزبير إذ تنازعا على الخلافة . وكان لزاماً على الخليفة الفقيه أن يتوقع حساب السماء له على بطشه وبطش الحجاج لحسابه ! .

فسيرى الناس عند قيام دولة بنى العباس ، بعد نصف قرن أو يزيد شيئاً ، سبعين ونيفا من بنى أمية يتصدرهم حفيده سليمان بن هشام بن عبد الملك يذبحون فى وليمة أعدت لهم ، ولا يعفى من الذبح إلا حفيد للرجل الصالح عمر بن عبد العزيز !

ويمكن إجمال الحديث عن ثلث القرن الأخير من عمر الدولة بعد موت عمر بن عبد العزيز بكلمات عن السنوات الأربع التى استخلف فيها يزيد بن عبد الملك (١٠١–١٠٥) فاستفتحها

– إلى الملن فامرقيه ؛ قالت الفتاة : أما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين أنه لا يشاب اللبن بالماء ؟ قالت المرأة : إنك بموضع لا يراك فيه عمر ! قالت : والله ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخفاء ! وعمر يسمع هذا كله .

قال عدّ الباب واعرف الموضع – ومضى فى عسه ، فلما أصبح قال يا أسلم : امض إلى الموضع . فنظرت فإذا الخربة أيّم لا بعل لها ، وإذا تيك أمها لا بعل لها ، فأتيت عمر فأخبرته ، فدعا ولده ، فجمعهم وقال : فيكم من تحتاج إلى امرأة فأزوجه ؟ قال عاصم : لا زوجة لى فزوجنى ، فزوجها عاصماً ، فولدت له بنتاً ، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز .

برسالة منه إلى ولاته يقول فيها عن الرجل الصالح وعن أرواح المسلمين وأموالهم : (أما بعد فإن عمر كان مغرورا غررتموه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه فى انكسار الخراج . فإذا أتاكم كتابى هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى ، أخصبوا أم أجدبوا كرهوا أم أحبوا ، حيوا أم ماتوا . والسلام) .

وليس بعد قتل الراعى للرعية وسلبها ذنوب !

وتوارى يزيد فى مباذله يلقى إليه السمع كل مشّاء بنميم ، ويُرعى سمعه مغنيتى القصر لشهيرتين سلامة وحبابة ، تثبطان نشاطه وتفسدان حاشيته ، فيصيح من تباريح غرامه : دعونى أصبر ! وتطارحه الغانية الصبابة فتهتف : إلى من تدع الأمة ؟

ولما لفظت حبابة أنفاسها تلفت نفسه ، فلفظ أنفاسه بعدها بأيام سبعة !

تلك حال الدولة التى صبرها معاوية (هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل) كما قال له عبد الرحمن بن أبى بكر . والتى حكّمت العرب فى الموالى وهم كثرة الأمصار، فلم يصلح حال العرب فى جزيرتهم ولا بال الموالى فى سائر الديار . وأقبلت الجيوش من خراسان تطالب بعودة الحكم إلى أهل بيت النبى . فليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى .

* * *

قامت دولة بنى العباس (١٣٢ ٦٥٦) على شعارين هما :

١ - إعادة الدولة للحكم الإسلامى الحق على أن يتولاها أهل بيت النبى .

٢ - المساواة بين الموالى والعرب .

لكن الدولة لم تكد تبدأ حتى أبعدت من الشعارين كل البعد ! فأصبحت ملكاً عضوداً يسيطر الموالى فيه على العرب ، ويوضع الأساس لحكم (شعوبى) يقتلع كل ما هو عربى ويخلط فى العقائد بقصد وبغير قصد ويفتك بأهل بيت النبى .

ولم يكد أبو جعفر المنصور يبنى بغداد (سنة ١٤٥) حتى غدت كهيئة صندوق الدنيا عدسة صغيرة يبصر فيها الناظر إليها عجائب العالم ومتناقضاته !

وسيحكم الجاحظ على الدولة بعد انقضاء قرن على قيامها فيقول : (دولتهم عجمية خراسانية ، ودولة بنى أمية عربية أعرابية !) .

ولم يقتصر التخليط على الأفكار والأفعال ، بل تسرب إلى دماء الخلفاء فكثر منهم امهجناء . المأمون (٢١٨) أمه «مراجل» خراسانية ، والمعتصم أمه (ماردة) تركية ، وأم الواثق (قرطيس) رومية ، والمتوكل أمه (شجاع) خوارزمية ، والمعتز أمه (قبيحة) والمقتدر والمستكفى أماهما رومیتان والمطيع أمه صقلبية !

وجَنَّ على البيت الهاشمى ليل بهيم تدلج فيه البدع ، وتناهت إلى المسلمين إسرائيليات كثيرة وخلافات وعقائد من النصارى والفرس والإغريق . وبدأت آثار الفرقة تظهر فى محيط المذاهب بين أهل السنة ، ومال بيت الخلافة عنهم زماناً ، فأضرم الفتنة . ثم مال إليهم فلم ينفع أو ينتفع ، فلقد ساءت سيرته واستيْئس العلماء منه . أنْ صار نادياً للخمر وللهو منذ المائة الثانية من عمر الدولة .

وحياة الأمم فى عصر هى حاصل حياة أفراده وقواده . والناس على دين ملوكهم .

وبعد أن كان فى الدولة جهاز لمقاومة الزندقة أصبح فيها من العلماء من يحرض المأمون والمعتصم على الفتك بعلماء الحديث والسنة . واقترنت نزعة الاجتهاد ونزعة التقليد . ثم استبد التقليد بعقول العلماء . وخبا الضياء . وران الجهل على القلوب ، ولم يعد بين الخلفاء علماء أو أصحاب ورع ، بل شاعت أحاديث البلهنية والرفاهية عنهم ، وحكمت الحاشية باسمهم أو على الرغم منهم(١) .

---

(١) فقدت الدولة العباسية توازنها بعد موت الرشيد ، وكان أول الأسباب فساد الدين وسوء سلوك الخليفة الأمين ، إذ أوصى إليه الرشيد بالخلافة تغليباً للعنصر العربى فى بنى العباس فأمه زبيدة بنت عم الرشيد ، وأوصى لأخيه الأكبر - المأمون - بخراسان . واستخف الأمين عصر اللهو والخمر والمجون فى بيت بنى العباس على مدى سنوات خمس تعسة . وثارت خراسان على الخليفة العربى الأب والأم ، كمثل ما ثارت على دولة بنى أمية العربية الأعرابية كما يصفها الجاحظ ، وانتصرت جيوشها على الأمين وقتلته وأحلت المأمون محله . وصار المأمون سيرة سوء فى المحدثين : ففصل بين الأمة وبين الخلافة ، ثم خلفه أخوه المعتصم بعد أن وصاه المأمون أن يسير فى المحدثين سيرته نفسها وأن يمتحنهم بمحنة خلق القرآن ، وهو الخليفة الذى ضرب أحمد بن حنبل ووضعه على العقابين ليعذب حتى الموت أو يقول بخلق القرآن ولو تقيّة .

وكان طبيعياً وقد انحرفت الدولة عن الجادة على مدى ثلث قرن من حكم الإخوة الثلاثة أن تنحرف عن العرب إلى الفرس فى حياة المأمون ؛ فهم أخواله وجنده . ثم إلى الترك فى حياة المعتصم . فهم أخواله وجنده !

وكان غير طبيعى أن يسقط المعتصم العرب من ديوان الجيش ، وأن يقصره على الأتراك ؛ فقد لاذ منهم بذئب سيفترس أبناءه وحفداءه . وأحدث الأتراك الانفصام بين الحكم وبين العقيدة . وأصبحت السلطة غرضهم على حساب الأمة والعقيدة . فتوجه بنو العباس إلى اللهو المزرى يغرقون فيه همومهم . وإلى السرف يعوضون فيه حقائق السلطة التى تفلتت من أيديهم إلى الترك ، فأصبحوا أسرى لهم ، تعظم الثراء والبحبحة ، ليظهروا فى أعين الناس وفى أعين أنفسهم أنهم ما يزالون محل اعتبار !

فالواثق بن المعتصم - هو الذى توج أشناس التركى ملكاً .

وهو الذى جلس ذات يوم على سرير مرصع بالجواهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب فى قصر مفروش بالوشى والديباج يشرب رطلاً بعد رطل من النبيذ ، ويستمع إلى جاريته (فريدة) وهى تغنى :

أهابك إجلالاً وما بى حاجة ... إليك ولكن ملء عين حبيبها

وما هجرتك النفس يا ليل أنها ... قلتك ولكن قل منك نصيبها

وأخذته النشوة فضربها برجله ، فتدهورت تحت السرير فقال : صنعت ذلك لأنى تصورت أنك ستغنين بعدى للمتوكل !

ولما خلفه أخوه المتوكل (جعفر) اختفت فريدة ، وملكت قلبه الجارية (قبيحة) . فأثر بها المعتز على ابنه الآخر المنتصر ، فتآمر المنتصر على أبيه مع الأتراك فقتلوه سنة ٢٤٧ . ثم قتلوا المنتصر بعد ستة أشهر !

ولم يظهر أحد من الإسراف ما أظهره المتوكل : بلغ مجموع ما أنفقه على بناء القصور مائتين وتسعين مليون درهم وهى ثلاثة أرباع دخل الدولة فى عام ، وكانت كل نوبة من نوب الفراشين فى هذه القصور أربعة آلاف من السراري ، أما فراشه فيخصص له خمسمائة وصيفة أحظاهن عنده (قبيحة) .

وكما استعان المأمون بأخواله الفرس استعان المعتصم بأخواله الترك فغلب الواغلون على الدولة ، وقتلوا ابنه المتوكل بمؤامرة مع ابن له ، ثم قتلوا ذلك الابن ، ثم ولوا المستعين ثم قتلوه (٢٥٢) ، وولوا المعتز ثم خلعوه . بعد ثلاث سنوات وحبسوه فى بيت مسدود حتى مات فيه ! وولوا المهتدى ثم قتلوه سنة ٢٥٦ ، وولوا المعتمد ثلاثة وعشرين عاماً طالت قدر ما طال خضوعه لهم . فلقد طلب ذات يوم ثلثمائة دينار فلم يجدها !

وتناقل التاريخ شعره :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما هان ممتنعاً عليه
وتؤكل باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء فى يديه ؟

ثم ولوا المعتضد فالمكتفى حتى مات سنة ٢٦٥ ، وولوا أخاه المقتدر وهو غلام أخذا بنصح وزيرهم ابن الفرات حين رشحه للخلافة ، لأنه (صبى لا يدرى أين هو ، وعامة سروره أن يصرف من المكتب) وثارت عليه طائفة منهم ولت ابن المعتز.وله الأرجوزة الذائعة الصيت فى الأدب العربى ، وفى بيت واحد منها قانون السلطة الذى أخذ به الأتراك خلفاء بنى العباس ، وهو فى صليعة المأخوذين ؛ إذ لم يستخلف إلا ليلة ! فكان كما قال فى أرجوزته :

كل يوم خليفة مقتول أو خائف مروع ذليل

ثم أعادوا المقتدر ، فكانت أمه تسوس الدولة وتجلس قهرمانتها (ثمل) للمظالم !

ولما قبضت أم المقتدر يدها عن الجند قتلوا ابنها ، وولوا أخاه سن غيرها ولقبوه (القاهر) فعنّفها منكّسة من رجل واحدة ليستخرج منها مائة وثلاثة آلاف دينار !

وخلع الأتراك القاهر بعد عامين ، وفقئوا عينه ، وأجاعوه . فكان يتكفف الناس بين الصفوف فى جامع المنصور !

ثم ولوا الراضى سنة ٣٢٢ فبقى حتى سنة ٣٢٩ ، وفى عهده أضيفت فى خزائن الدولة إلى جمجمة وزير سابق «هو الحسن بن القاسم» يد وزير لاحق هو ابن مقلة وهى صاحبة الخط الشهير باسمه . فحفظتا فى سفط واحد كتب عليه : (إن هذه اليد هى التى أمرت بقطع هذا الرأس) !

وفى سنة ٣٢٩ ولوا المتقى ثم خلعوه سنة ٣٣٤ وسملوا عينيه ، وولوا المكتفى ولم يمهلوه إلا أربعين يوما ، ثم دخل عليه اثنان من النقباء الديلم فتناولا يده . فمدها حسباناً منه أنهما سيقبلان يده ! فجذباه من سريره وجعلا عمامته فى حلقه وساقاه ماشيا إلى دار معز الدولة البويهى وسملوا عينيه !

خرجت إليه يوم عيد النيروز تساقيه الخمر وتغنيه :

فيا من مناها فى السريرة جعفر سقى الله من سُقيا ثنايك جعفرا !

وولوا ابنه المطيع ليبقى فى طاعتهم حتى سنة ٣٦٣ ، وفى عهده قامت هوشة الكرخ من أحياء بغداد فحرقها الوزير معز الدولة (أبو الفضل الشيرازى) ، بل أرسل جنده فطرحوا عليها النار وأحرقوا النساء والصبيان والأموال . فهلك ١٧ ألف إنسان ، وثلثمائة دكان ، وثلثمائة وعشرون داراً . وثلاثة وثلاثون مسجداً . والبويهيون شيعة ، وسكان الكرخ شيعة ! وسيتابع الخلفاء المطاويع حتى المستعصم وهو الذى يقول ابن الطقطقى فيه وفى نداماه وحاشيته : (كانوا منهمكين معه فى التنعم واللذات لا يرجون له صلاحاً ! ومما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوى الطرب . وفى تلك الحال وصلت رسل السلطان الأكبر (هولاكو) يطلب منه منجنيقات وآلات حصار ، فقال بدر الدين : (انظر إلى المطلوبين ، وابكوا على الإسلام وأهله ! » .

* * *

وجرى قضاء الله على المسلمين بما يستحقون . وبخاصة أولى الأمر منهم . سواء أكانوا الأمراء الذين استسخروا العلماء أو عمل العلماء فى إضلالهم ، أم كانوا العلماء الذين أضاعوا العلم . ولم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر !

وتخلف عن آثار الانفصام الذى أصاب دولة تظهر النسك وتبطن نقيضه ، ومشيخةً للعلماء يأخذ الأمراء من دينهم أضعاف ما يصيب العلماء من دنيا الأمراء — أن أصبحت الأمة رجراجة ، تنجذب يمنة أو يسرة على حسب ذبذبات السلطة ، وتدفعها بين هؤلاء وهؤلاء شهوات الحكام بالسلاطة والقسوة فى مهاب الرياح الأربعة !

وحسبك أنباء صغيرة من (حوليات) ذلك الزمان تفوق دلالتها أفصح التعبيرات عن فساد كالمائعات يسيل إلى الناس من علٍ . ولقد طالما فاقت همسات الصغائر جلجلة الكبائر فى الأثر ، وبخاصة عندما يقارفها صاحب السلطة أو رجل العلم الذى تطلع إليه العامة والخاصة :

لم يكد القرن الثانى للهجرة يشارف ختامه فى أخريات عصر الرشيد حتى شرع بنيان الدولة العباسية فى التصدع ، فقامت فى أقطارها المتنازحة دويلات صغيرة أولاها دولة الأغالبة (١٩٠ — ٢٢٠) فى أفريقية ، ثم الدولة الطاهرية فى خراسان ، ثم الدولة السامانية فى عهد المعتضد ، ثم الدولة الصفرية فى عهد المعتز ، وقامت بمصر الدولة الطولونية (٢٤٥ - ٢٩٢) ، فالدولة الإخشيدية[1](٣٢٢ - ٣٥٨) ؛ كما قامت الدولة الحمدانية فى حلب (٣١٧ — ٣٩٤) .

وفى أفريقية قامت الدولة الفاطمية سنة ٢٩٧ لتبقى دولة كبرى حتى سنة ٥٦٧ .

---

(١) الإخشيد لقب فارسى كان يطلق على ملوك الفرغانة . ومعناه « ملك الملوك » وسنرى بعد سخط الناس على هذا اللقب عندما ادعاه لنفسه الأمير التركى بلغة عربية

وغلبت دولة بنى بويه على الخلافة العباسية ابتداء من سنة ٣٣٤ إلى ٤٤٧ عندما دخل السلاجقة بغداد ، وصار الخلفاء دُمى فى أصابع البويهيين . فالسلاجقة ، واستحبّوا الخنوع ، واتخذوا المنصب الدينى وسيلة للمعاش . فأصبحوا عناوين كذب على حكم لا يمت إلى الدين بأوهى سبب .

يقول عنهم المسعودى فى سنة ٣٤٥ : (لم أعرض لوصف أخلاق المتقى والمستكفى والمطيع ومذاهبهم ، إذ كان هؤلاء الخلفاء كالمولّى عليهم : لا أمر ينفذ لهم ، أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلب على أكثره المتغلبون الذين استظهروا عليهم بكثرة الرجال والأموال . واقتصروا على مخاطبة الخلفاء (بإمرة المؤمنين) والدعاء لهم ، وأما بالحضرة فتفرد بالأمور غيرهم ، وصاروا خائنين . قد قنعوا باسم الخلافة . ورضوا بالسلامة) .

وصَغار الخلفاء كهوان العلماء وغلول الأمراء ولصوصية الحرس – نذر دمار لا يتخلف :

يذكر ابن الأثير فى الكامل أن المطيع قال للأمير البويهى إذ طلب منه مالا للغزو : (إن الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى وتجبى الأموال إلىّ ، وأما إذا كانت حالى هذه فلا يلزمنى شىء ! وإنما يلزم من البلاد فى يده ، وليس لى إلا الخطبة ، فإن شئتم أن أعتزل فعلت) .

فخليفة المسلمين يعتزل الخلافة فيهم ، إذ يختلف هو ورجل ، بل هو لا يملك أن يعتزل إلا أن يأذن له الرجل !

ويقول ابن الجوزى فى كتابه المنتظم عن أحداث سنة ٤٢٦ : إن سخط الخليفة القائم بأمر الله على الدولة بلغ به أن يأمر القضاة بالامتناع عن الحكم ويأمر الخطباء (ألا يحضروا إملاكاً ولا يعقدوا عقداً !) .

فخليفة المسلمين يعطل أحكام الشريعة إذا غضب ويجريها إذا رضى !

ومن قبل هذا الانتقاض على الدولة التى تدار باسمه كان الخطباء ينتقصون على الخليفة ذاته :

روى ابن الجوزى فى حوادث سنة ٤٠٢ أنهم كانوا بعد الدعاء للنبى ﷺ يضيفون دعاء شيعة على بن أبى طالب : (وعلى أخيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب مكلم الجمجمة ومحيى الأموات ، البشرى الإلهى ، ومكلم فتية أهل الكهف !)

وإذا كان خليفة المسلمين خشخاشة ، وكان الدعاء لعلى على المنبر يقترن بأراجيف مكفرة ترفعه على رسول الله ﷺ – فلم لا يضيف أمير بنى بويه لنفسه لقبا يشبّه نفسه فيه بالله جل جلاله ؟ ولم لا يمشى إليه الخليفة هرولة ، أو يتبادر العلماء فى ركابه ؟

وصدق رسول الله ﷺ : (من شر ما أوتى العبد شح هالع وجبن خالع) .

يذكر ابن الجوزى عن أحداث سنة ٤٢٩ مايذكره ابن السبكى فى طبقات الفقهاء .

(فى رمضان من تلك السنة استقر أن يزاد فى ألقاب جلال الدولة (البويهى) لقب شاهنشاه الأعظم (أى ملك الملوك) ، فأمر الخليفة القائم أن يخطب له به ، فنفر العامة ورموا الخطباء بالآجر ! فكتب الخليفة إلى العلماء فى ذلك ، وأجاب أبو عبد الله الصيمرى : أن هذه الأسماء يُعتبر فيها القصد والنية . قال الله تعالى : (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً) وقال تعالى : (وكان وراءهم ملك) وإذا كان هذا فى الأرض جاز أن يكون بعضهم فوق بعض ، وليس فى هذا ما يوجب التكبر أو المماثلة بين الخالق والمخلوق .

وكتب أبو الطيب الطبرى أن إطلاق « ملك الملوك » جائز ، ويكون معناه ملك ملوك الأرض ؛ وإذا جاز أن يقال : (كافى الكفاة) . و (قاضى القضاة) جاز (ملك الملوك) ؛ وإذا كان فى اللفظ ما يدل على أن المقصود ملك الملوك فى الأرض زالت الشبهة. وكتب التيمى الحنبلى نحو ذلك .

وذكر محمد بن عبد الملك الهمذانى أن الماوردى (وكان شافعيا) منع من جواز ذلك ، وكان يلى وظيفة (قاضى القضاة) لجلال الدولة . فدعاه جلال الدولة فقضى على وجل يتوقع المكروه ، فلما دخل عليه قال له : أنا أتحقق أنك لو حابيت أحداً لحابيتنى لما بينى وبينك مع أنك أكثر الفقهاء إيماناً وأوفاهم جاهاً ومالاً ، وما حملك على مخالفتى إلا الدين . وقد قربك ذلك منى وزاد محلك من قلبى . وقدمتك على نظائرك عندى[1].

وعلق ابن الجوزى - وهو الحنبلى - على الفتوى بأن قاضى القضاة (الماوردى) على حق لأنه قد صح فى الحديث ما يدل على المنع ، ولكن الفقهاء المتأخرين عن النقل بمعزل.

ويشرح ابن السبكى (الفقيه الشافعى) قول ابن الجوزى ، فيذكر النقل المقصود وهو حديث

---

(١) العلم أمانة لا تحتمل إلا الوفاء . وقد يختلف العلماء ولكنهم يؤدون الأمانة ، ولا يتواطئون ؛ ولا ينتصرون للظلم أو للكفر . ومنهم السياسيون الذين يتيحون للدولة المنادح والفرص . ومنهم من يأخذونها بالشدة حتى لا تميل . لكن الفريقين لا يبغيان إلا النصيحة للمسلمين إليك مثلاً من خلاف عالمين يمثلان الفريقين :

بعث عمر بن هبيرة والى العراق لبنى مروان إلى الشعبى (١٠٤) المحدث وقاضى الكوفة لعبد الملك بن مروان وسفيره وصديقه وإلى الحسن البصرى (١١٠) .

قال عمر بن هبيرة : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك طلب إلىّ أموراً أعمل بها ، فما تريان ؟

قال الشعبى : أنت مأمور والتبعة على من أمرك !

وقال الحسن : إن الله تعالى ينجيك من يزيد ، وإن يزيد لا ينجيك من الله سبحانه وتعالى . لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وخرج الحسن وتبعه الآذن يقول له : أيها الشيخ ما حملك على ما استقبلت به الأمير ؟

قال الحسن : قال الله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم » والحسن أعلم بيزيد فهو يدرك ماذا بعث به إلى عمر .

ولقد مر بنا أمر يزيد .

الرسول : (أخنع اسم عند الله تعالى رجل تسمى ملك الأملاك) وحديث (اشتد غضب الله تعالى على رجل تسمى بملك الملوك . لا ملك إلا الله تعالى) . وأضاف أن دولة بنى بويه لم تمكث بعد هذا اللقب إلا قليلاً .

ولم يمض جلال الدولة بعد هذا أشهراً وعاش الماوردى (٤٠٥) سنين ضنيناً بكرامة العلم والعلماء وهو مع عظمته فى القضاء أعظم فى الفقه وفى أدب الدنيا والدين وفى تفسير القرآن .

* * *

فى هذه الواقعة التى تنطق بانحراف الخليفة والسلطان والإمّعات الطائعة من أهل العلم دلالة على مبلغ ما استشرى الفساد فى كل وجه.وسيرد التنبيه على خطره على العقيدة الإسلامية بعد قرون فى كتاب التوحيد لابن عبد الوهاب وشراحه [1] .

ولئن كان لنا أن نلاحظ أن السلطان التركى لم يفكر فى تفخيم دولته إلا وهى تهوى نحو الزوال إخفاء منه لواقع الحال – إن المرء ليشهد كذلك سلطاناً قاهراً دينه القوة وديدنه الغلول ! وخلفاء مقهورين لا حول لهم ولا طول! وعلماء معممّين يعيشون عمياناً أو متعامين . فإذا اجتهد واحد منهم لم يجتهد ليظهر حكم الله ؛ وإنما كان همه وكبر مناه أن يبرر للسلطان شهوة تتعارض هى وصريح النص أو جلال الواحد القهار .

والناس دائماً – والمسلمون بوجه خاص – ينتظرون موقف الصدق من الأمراء وكلمة الحق من العلماء ، فما أضيع الأمة إذا فسد هؤلاء كلهم أو جلهم !

ولئن قارب الأتراك الخلفاء ليربطوهم بقطارهم . أو أصهروا إليهم ليضيفوا الدم القرشى النقى إلى دم طولونى أو سلجوقى – إن زواج الدولة هذا كان يدير الحدق فى شتى الاتجاهات ، وبتغيا أغرب الغايات من أغراض الزواج ! ففى القرن الثالث زوج خمارويه بن أحمد بن طولون بنته قطر الندى المعتضد ، ليخلع على بنى طولون حلة من البهاء ، فى حين كان المعتضد يقول : ما قصدت بهذا الزواج إلا إفتقار ابن طولون ؛ لأنه يضطر أن يجهزها بما لم تجهز به عروس من قبل ! وكان ما قاله : جُهزت بما استفرغ خزائن مصر والشام !

وفى القرن الخامس غلب السلاجقة على البويهيين ، فدخل طغرل بك مؤسس الدولة

---

(١) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتابه التوحيد : (باب التسمى بقاضى القضاة أو نحوه) : (فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك ، لامالك إلا الله) . قال سفيان بن عيينة : مثل شاهنشاه .

والإمام أحمد بن حنبل يروى هذا الحديث عن سفيان ويرويه بطريق أخرى .

ومن قبل ابن عبد الوهاب يقول ابن قيم الجوزية : تحرم التسمية بسيد الناس وسيدة الكل (ست الكل) كما يحرم تسييد ولد آدم ؛ فإن ذا ليس لأحد إلا للرسول ﷺ .

السلجوقية بغداد ، فأطلق الخليفة القائم بأمر الله من حبسه . وأخذ بلجام بغلته وزوجه بنت أخيه داود سنة ٤٤٨. ثم تزوج هو بنت الخليفة . حتى إذا ولى السلطان مسعود السلجوقى أجلس الخليفة المتقى على مسند الخلافة ، وبايع له ، ثم أخذ جميع ما بدار الخلافة من ذهب وأثاث وغيرها وانصرف !

وتستمر الحال على هذا المنوال حتى يدخل هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ بخيانة وزير الخلافة ابن العلقمى ، فيقتل الخليفة ويجزى ابن العلقمى غدراً بغدر فيقتله !

وكمثل زواج الدولة وخيانة الوزراء ، ومهانة الذين فسقوا عن أمر ربهم لأجلهم . كان رياء السلاطين وتجارتهم بالدين وهوان الأحياء من بنى العباس !

لقد ولى واحد من بنى العباس فراراً من بطش التتار . فهبط مصر سنة ٦٦٠ فتلقفه سلطانها الظاهر « بيبرس » ، وعينه خليفة قرشيًّا ، ليتخذه شعاراً لمشروعية حكمه ، ثم تتابع فى مصر تعيين السلاطين لخلفاء رمزيين من بنى العباس ربما عاشوا من النذور التى كانت تقدم فى مسجد يحمل اسم السيدة « نفيسة بنت الحسن » القائم الآن بالقاهرة فى حى يحمل اسم (حى الخليفة) تخليداً لمكان إقامة هؤلاء الخلفاء حتى سنة ٩٢٣ ١٥١٧م .

فى ذلك العام غزا الأتراك مصر ، ورجع السلطان سليم العثمانى إلى القسطنطينية حاملاً نفائسها وأعلاقها وعمالها المهرة ومعهم (الخليفة العباسى) ، لتنتهى خلافة بنى العباس بمصر ولتبدأ « خلافة » تركية للعثمانيين فى إسطنبول تبقى قروناً أربعة حتى يقضى عليها مصطفى كمال فى النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة والربع الأول من القرن العشرين للميلاد .

* * *

هكذا سخر الأتراك الخلافة فى كل العصور ، فأذلوا بنى العباس فى بغداد ، وشروا بهم متاعاً قليلاً فى القاهرة ، وحملوهم فى رحالهم إلى إسطنبول ، ليرثوهم أحياء ، ورفعوا الشعارات الدينية لإيهام الرعية وغيرها بأن الدولة قد تكامل فيها أمر الدين والدنيا بمجرد رفع الشعار دون الالتزام بمضمونه . واستبدلوا الشكل بالموضوع ، والطقوس بالحقائق ، والبدع بالسنن ، وظواهر الأشياء بجواهرها .

وازداد انحدار الجماعة والدولة واستمر ، فلم يكد يبقى فرق بين الحكم الوثنى وبين حكم المجتمع الإسلامى !

ولم يعد الحرص على الإسلام مشغلة الحكام ، ولا العض على الدين بالنواجذ فضيلة المجتمع ، وإنما انشغل الحكام بالتسلط ، وانطوى الصلحاء على أنفسهم ، وأقفل العلماء باب الاجتهاد . وأمعنوا فى تقليد غيرهم وتعطيل فكرهم . وضعفت عزائم الناس عن التصدى للمنكر ، فحق

عليهم قول رسول الله ﷺ .

(إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده) .

وما كان تعاقب الدول الغازية لهم - واحدة بعد أخرى - إلا جزاء السماء لهم على أحداث أحدثوها بأنفسهم .

المنهج السلفى مركز الثقل فى الأمة

فى إبان هذا الفساد الذى يتزايد قدر ما تتباعد العصور من فجر الإسلام ويتحكم الشعوبيون فى الأمة ويمكّن الحكام لدولهم على حساب دينهم ، وتسرى القدوة السيئة من الحكام إلى الرعية ، وتشيع البلبلة من البدع الوافدة من الخارج ، نَتَجتْ أمة العرب فحولا ليس لهم نظائر فى تاريخ الشرائع نذروا حياتهم لتعليم المسلمين فقه الشريعة بتخريج معانى النصوص وتطبيقها وتجلية الكنوز الدينية والفكرية التى حيى بها المسلمون . وكانت بدع المتكلمين والمشككين والمشعوذين والمتساهلين محلا للحرب ، فهى - كالسموم التى تتعاطاها الأمة بيدها - أعجل فى التداول والانتشار والدمار !

فى القرن الثانى علا نجم مالك (١٧٩) فى سماء الحجاز ممثلاً علماء المدينة من محدثين وفقهاء ، وارتفع اسم أبى حنيفة (١٥٠) ، واقترن بإمامة الرأى فى العراق ، وفى أواخر القرن انطلق محمد بن إدريس الشافعى (٢٠٤) من مكة والمدينة إلى مراكز العلم فى بغداد بالعراق وجامع عمرو فى مصر ، ليزيد فقه الإمامين اللذين سبقاه تسديداً ، وليضع أصول الفقه الإسلامى . ويرسى قواعد الاجتهاد ، ليجرى على سننها المتفقهة أجمعون ، ويسير على الطريق ذاته سائر علماء المسلمين .

وفى مدرسة المحدثين وحلقة الشافعى نجب أحمد بن حنبل (٢٤١) ، فأصبح إماماً فى الفقه والحديث ، وكان أكثر الأئمة علماً بالنصوص والآثار واستعمالاً لها ولأصلى الإباحة والاستصحاب ، فكان مذهبه أظهر المذاهب يسرا وسعة والتزاماً لمنهج السلف .

وفى فاتحة المائة الثالثة تجمعت التيارات الفكرية ودعاوى اليهود والنصارى بين أيدى العلماء ، يواجههم بها مرجفون ظاهرون ومستترون ، هيأت لهم سماحة الجماعة الإسلامية ظروفاً مواتية ، وفتح لهم الأبواب استهتارُ الخلفاء والحكام بعد إذ ولى الأمين فى خواتيم المائة الثانية ، وألهاه المجون عن الزنادقة ، ثم ولى المأمون وكان شديداً فى التشيع ، عنيداً فى فرض آراء المعتزلة على الأمة . حريصاً

على ترجمة كتب الإغريق والفرس والهنود ؛ ففتح الأبواب على مصاريعها لكل قول ، وألزم العلماء ، والسيوفُ على أعناقهم ، أن يعتنقوا آراء المعتزلة فى القول بأن القرآن « مخلوق » . وكان أحمد بن حنبل عالم العصر ، فكان رجل الساعة ، فقال كلمة الساعة .

وسما اسم أحمد بما أصابه من العذاب والاسترهاب ووقوفه فى وجه البدع التى أحدثها بعضُ سواء من المتكلمين[1] الذين أدخلوا فى مجالات العلم والفقه مقولات جدلية قد تحدث البلبلة ، أو من العباد أو الزهاد الذين يخترعون بدعاً لم يصنعها السلف الصالح ولا تحتملها النصوص أو المعانى الكلية المستنبطة من مجموع نصوص .

والشريعة معقولة المعنى ، فلا يمكن أن يتناقض صريح المعقول وصريح المنقول فيها ، ويتعين على المسلم أن يبادر إلى ما تكلم الله به من اللفظ ، فيتدبره ويعمل بفحواه : كما تلقاه المسلمون عن الرسول وصحبه وتابعيهم فهؤلاء خير القرون . وفيهم قوله ﷺ : (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمران بن حصين : فلا أدرى : أقرنين ذكر بعد قرنه أم ثلاثة ؟ (ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤمنون ، وينذرون ولا يوفون . ويظهر فيهم السمن)[2] .

وعمل هذه الأجيال وبخاصة جيله – عليه الصلاة والسلام – خير عمل . فهو بين أن يكون عن مشاهدة لما صنع الرسول وأن يكون فهماً صحيحاً منهم للشريعة ، وقد كانوا أول من خاطبهم الله تعالى . فعملهم عمل السلف الصالح الذى زاده أحمد بن حنبل تثبيتاً عند جمعه للسنة فى (المسند) ليكون مرجعاً يرجع الناس إليه .

وتتابع على الجمع والتصحيح بعده أصحاب الصحاح والمسانيد فى القرون التالية ، وتناقلت الأجيال السنة الصحيحة ، وفهمت أسماء الله وصفاته وتوحيده على الوجه الذى جاءت به

---

(١) المتكلمون – والمعتزلة منهم – أصحاب علم الكلام . وهو علم يتضمن الحجاج بالأدلة العقلية – عن العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع ، فهم يبدءون بالعقل وينتهون إلى إثبات الشرع ، ويردون على أصحاب البدع والمنحرفين فى الاعتقاد .

وكثر جدال المتكلمين فى القضاء والقدر والجبر والاختيار وصفات الله جل شأنه ونظرية الإمامة – الخلافة – وكثر فيهم المؤولون لألفاظ الكتاب والسنة ، واستطار الخلاف بينهم وبين المحدثين ومع المحدثين جمهور الأمة . يقول الإمام الشافعى : (إياكم والنظر فى الكلام ؛ فإن الرجل لو سئل عن مسألة فى الفقه أخطأ فيها ؛ كما لو سئل عن رجل قتل رجلاً فقال : دية بيضة – كان أكثر شىء أن يضحك منه ، ولو سئل عن مسألة فى الكلام فأخطأ فيها نسب إلى البدعة) .

ويروى عنه الربيع قوله : (لو أن رجلا أوصى بكتبه من العلم وفيها كتب الكلام لم تدخل كتب الكلام فى هذه الوصية) . ولما ناظره حفص الفرد فى دعوى خلق القرآن انصرف حفص كاسف البال يشكو أن الشافعى كفره .

(٢) ويروى ابن مسعود أنه عليه الصلاة والسلام قال : (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجىء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته) . والقرن الجيل ، ثم استعملت الكلمة بعد ذلك بمعنى مائة عام .

النصوص ، وفهمها به الصحابة من النبي ، والتابعون من الصحابة ، دون أن تحيك فى صدورهم الشكوك . والله تعالى يقول : (ليس كمثله شيء) فهو بصير وسميع له الأسماء الحسنى - يسمع ويرى لا كما يسمع الناس ويرون ، ويستوى على عرشه - هو - لا كهيئة الملوك أو عروشهم - والكون كله فى قبضته بسلطانه وجلالة شأنه .

وعمل العلماء العدول بالسنة وعلموها . فلم يوجد فى الأئمة مشبه أو مجسد أو مبتدع . يكثر فيهم الزهد على نحو ما زهد الصحابة والتابعون : لا يصطنعون هيآت للتعبد ولا يسيغون مستحدثات لم يسبق بها الأولون . فإذا أضافوا جديداً فإنما يضيقون فضلَ عملٍ لا ينبو عن الأصل .

* * *

وخلف من بعد هؤلاء الأئمة خلف لم يكونوا أمثالهم ، لكن الأئمة تركوا آثارهم فيهم . فنشروا العلم ، ولم يستطيعوا أن يمسكوا بالسلوك عن أن ينفعل بما أصاب الأمة من غير الزمان واضمحلال الإقبال على الجهاد . وهو ترياق من طبيعة الجماعة الإسلامية شرعه الله ليصهر معدنها وليطهرها ويصقلها ، فإذا اضمحل غَلبت عليها الدعة وإيثار العاجلة والاستهتار بالقيم الدينية فى الحياة اليومية ، فعجزت عن أن تجاهد الشهوات فى أنفس أفرادها بالقيم الدينية ، أو تنتهى عن المنكر إذا ارتكبه السلطان أو قارفته الجماعة .

ثم أخذ التخليط الوثنى سبيله إلى المجتمع على أيدى عزاة غلاظ القلوب من ديالمة بويهيين ، وسامانيين أو خراسانيين وتتار وأتراك يبغون للدين نصرة ، لكنهم إذا أسلموا بقى فى فهمهم للإسلام آثار من دياناتهم أو مجتمعاتهم السابقة ، تدخل فى المجتمع المغلوب على أمره بدعاً يقبل عليها المقهورون .

والمسلمون أمة صنعتها شريعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله . ويوم يخرجون على قانونهم جهرة أو خفية يفقدون التمكن والتوازن ، ويذلون للحكام أو الأغنياء أو الأقوياء ، وينساقون لتقليد المزخرفين والمزوقين فلا يتناهون عن منكر فعلوه ، وتتسع الهوة بين حياة المسلم وعقيدته ، وتنحدر الجماعة إلى مستوى أدنى من الإسلام ، فذلك يوم لا يصدق عليهم فيه أنهم مسلمون . وتكتب عليهم الهزائم من أنفسهم ثم من الخارج .

والهزائم من أنفسهم معروفة : فَهْمٌ غيرُ صحيح للدين أو تراخ فى التمسك بتعاليمه من أمره ونهيه وأدبه وإرشاده ، وانقطاعٌ عن الجهاد وامتناع عن الاجتهاد وتقليد لغيرهم فى الدين ، وتحويل للعبادة الصادقة إلى طقوس أو شكليات ! . وأنواع عيش من يوم ليوم بين الرجاء الذى لا يعملون له واليأس الذى يرين على قلوبهم ، ورضاهم بأن يكونوا مع الخوالف . . !

ويسلم جيل مستيئس مستسلم نقائصه إلى جيل أشد ابتعادا من الأصل وافتقادا للأمل . وكلما استحكم اليأس انقطع العمل الجاد الذى تحيا به الأمم ، ونما التواكل الذى يقتل العزائم ، وركن

الناس إلى خرافات تبيض وتفرخ فى أفهام الخاصة وأوهام العامة ، وتمتد جذورها فى ثرى المجتمع وترتفع فروعها ، فيستظل بها العلماء والأمراء . ويسيطر الخوف على الناس كافة من غير سبب سواء من الأشخاص أو الأشياء أو الأفكار - فترى الرجال أشباه رجال والعلماء صور علماء !

وفى هذا الخليط من الوساوس والرذائل يضمحل شأن العلم ، ويلتحق العلماء بمواكب السلطة ، ويوشك العقاب أن يعم الأمة ، فلا يصيب الذين ظلموا خاصة .

والهزائم من الخارج وليدة هزائم الداخل : فهذه الأمة لا تدمرها العوامل السياسية أو الحربية أو الجغرافية أو تكاثر العدو أو ظهور غيرها من الأمم على وجه كرة الأرض ، أو ظهورها على المسلمين أنفسهم ، فقد طالما أسلم المنتصرون ، واهتدوا بهدى المسلمين . وإنما تقهرها الآفات التى تصيب نسيجها الذى نسجت منه ، وهو فضائل دينها ، فتعجز عن المقاومة وربما عن مجرد البقاء !

* * *

رفع الإمام أحمد فى حياته (١٦٠ - ٢٤١) راية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقاوم « بدعة » خلق القرآن وتناقلت الأجيال قوله (هذا زمان مبادرة ، هذا زمان من عمل) ، ليعلم المسلمين أن كل زمان إنما هو زمان مبادرة وزمان عمل . وليس العلم فيه إلا طريقا أو قرينا للعمل [1] وقدّم فى سبيل ذلك عنقه لسيف المأمون وهو ينتظره شاهرا سيفه ليقتله بيده فحملوه إلى القتل آلاف الأميال ، مقيداً فى الحديد ، فقتل الله المأمون وأحيا الإمام !

ودخلت عليه سنة بعد سنة وهو سجين ينتظر القتل بيد المعتصم ، فأنزل به من العذاب على العقابين ما يتناقله التاريخ ، ومزقت السياط جسده ، فلم يطلقوه إلا بعد أن فقد وعيه !

ولما خرج من السجن لم يتهاون مع الذين تهاونوا ، لكيلا يعرف عنه تساهل مع من تساهل فى « البدعة » وإن كان أقرب المسلمين إلى قلبه .

دخل عليه يحيى بن معين [2] يعوده إذ مرض ، وكان قد قال بخلق القرآن تقيةً - فازورّ المريض

---

(١) ولد أحمد فى عهد خلافة المهدى الذى كتب إليه سفيان الثورى يقول : (لم أتعدت أجدادك الظلمة دون بابك وسترك . يظلمون الناس ولا ينصفون ، ويشربون الخمر ولا يحدون الشارب ، ويزنون ولا يجلدون الزانى ، ويسرقون ولا يقطعون يد السارق !)

وكان حكم المهدى مع هذا من أصلح الحكم فى الدولة العباسية - نسبياً - ديناً ودنيا ، ومن بعده تتابع الانحدار فى الدفاع عن الدين والاتساع فى طلب الدنيا ، وانقطع حساب الزنادقة وألغى الديوان الذى أنشأه لمعاقبتهم .

(٢) صحب يحيى أحمد عُظْم حياته ورحل معه فى عهد الطلب حتى صار علماً فى علوم الحديث وكتبه مراجع أصلية فيها ، وكان أبوه من كبار عمال الدولة . خلف له خمسين ألف درهم أنفقها فى سبيل العلم ، وتزهد . وهو يقول :

(أريد الله منا أن نكون مثل أحمد ، والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد) . ويقول : (إن الثناء على فى عبد الله من أطيب مجالس الذكر) وأحمد يقول فى علمه : (كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فهو ليس بحديث) ولا ينادبه باسمه بل يقول له : (يا أبا زكريا) فلقد كان يكبر أحمد بسبع سنين .

عن زائره وأدار وجهه كى لا يراه أو يحدثه . فتكلم يحيى عن الإكراه الذى يأذن للمكره أن يتقى الأذى بقول لا يعتقد صحته ، وأشار إلى حديث عمار (بإباحة القول تقية) ، فتابع الإمام ازوراره ، وخرج يحيى ، فقعد بالباب منكسر النفس ، ويحيى من أكابر المحدثين فى التاريخ الإسلامى - حتى إذا خرج إليه أبو بكر المروزى تلميذ أحمد وخادمه سأله : ماذا قال أحمد بعدى ؟ فأجاب أبو بكر : قال (يحتج بحديث عمار مررت وهم يسبونك فنهيتهم فضربونى) وأنتم قيل لكم : (نريد أن نضربكم) .

يقصد أن الأذى لم يقع فى حين أنه وقع بالفعل فى حديث عمار ، فالاحتجاج بالحديث حجة داحضة .

قال يحيى : مر يا أحمد غفر الله لك ، فما رأيت تحت أديم السماء أفقه فى دين الله منك [1].

وعلَّم أحمدُ المسلمين درساً خالداً فى الأمر بالمعروف والتصدى «للبدع» علا به اسم الحنابلة بعده ، وارتفعت أصواتهم متشددة فى كل بدعة ، فنسب التشدد فى الدين إلى الحنبلية . وما هى إلا الحنيفية السمحة كلما انتهكت حرمة لله كانت لها غضبتها .

والحنيفية يسر كلها ، ما خير صاحبها عليه الصلاة والسلام بين أمرين أحدهما أيسر إلا اختار ما هو أيسر ، لكنها تجعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض عين على الجماعة ، إذا لم تقم به أثمت كلها ، لتتضامن فى الفضيلة . فيتعدد المكلفون ويتيقظ المتقدون وتتنوع الوسائل ويتضافر الآمرون بالمعروف وييسر الإصلاح .

وحق إبداء الرأى أو حرية الرأى منصوص عليه فى القرآن والسنة فى صورة « واجب » على الحكام والمحكومين فى غير موضع ، ومن أظهرها إيجابه تعالى على رسوله أن يستشير وإن أخطأ المستشارون حيث يقول : (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر) .

والله تعالى يقول : (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) . فالطاعة لله والرسول فريضة محكمة . ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وليس للفرد أن يسكت عن إبداء رأيه ، فهو بعض الأمر بالمعروف المفروض عليه . وهذا « الحق » أو « الواجب » أحد المسلمات فى الإسلام قبل أن يعرفه الفرنجة بألف وثلثمائة عام فى نظمهم البرلمانية[2]. يقول عمر : (لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها) .

---

(١) فصلنا الكلام فى محنة خلق القرآن فى كتابنا أحمد بن حنبل إمام أهل السنة طبعة دار المعارف فى الباب خامس ص ٣٣٣ إلى ٤١٤ .

(٢) لم يصل الأوربيون إلى هذا الحق إلا بعد إقامة النظام النيابى . فى القرن الثامن عشر للميلاد والثالث عشر للهجرة ، فى

والحكم للدين . فإذا أساغت الجماعة المنكر أو سكتت عن إنكاره أو تقاعست عن إبداء رأيها لم تعد هى « الجماعة » ولم تكن لها الطاعة .

يقول ابن مسعود : (الحق ما وافق الجماعة وإن كنت وحدك) ويجليه قول نعيم بن حماد (إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة وإن كنت وحدك) ولما وقف أحمد بن حنبل موقفه الخالد فى وجه المأمون كان أحمد – لا خليفة المسلمين ولا الكثرة التى تبادرت إلى مرضاته – ممثلا لجماعة المسلمين لأن الحق كان معه .

وفى موقف أحمد يقول ابن قيم الجوزية بعد قرون خمسة : (لقد شذ الناس « كلهم » إلا نفرا يسيرا زمن أحمد كانوا هم الجماعة) .

ومن نقائص الجماعة فى عهد أحمد بن حنبل ومواقفه منها تتشكل صورة مصغرة لما سوف ينجم فى المجتمع من بدع تزداد تفاقما قدر ما يزداد التخلف .

وأحمد يروى عن رسول الله ﷺ : (كل محدثة بدعة . وكل بدعة ضلالة) ، ويروى عنه : (من أحدث فى ديننا ما ليس منه فهو رد) .

ولم يرو أحمد حديثا إلا عمل به ، فحياته درس فى دفع البدع وسد الذرائع .

البدع

البدعة شىء يشبه أن يكون من الدين وهو ليس منه ، سواء أكان بالصورة أم بالحقيقة فى الشكل أم فى الموضوع . وهى محرمة أو مكروهة وفق ما تحدثه من بلبلة ، وقدر قوة شبهها بالأصول وضعفها . والمكروه منها يجب العدول عنه سداً للذريعة .

وكثيراً ما توجد البدعة فى كيفيات بعض المندوبات وما تميل إليه الأنفس كالذكر والتلاوة بما يدخل عليها البعض من كيفيات سلوكية على نحو ما يصنع بعض المنتسبين للطرق ليروجوا طرائقهم .

ولا مراء فى أن الفيصل بين الأصل والبدعة هو عمل السلف بالأصل ومتابعة الخلف له ، ففى عملهم عصمة للأمة بتتابع السلاف عليه. وشهادة الأصل له واستمرار العمل به ، والسلف هم علماء أصول السنة والعاملون بها أعظم العمل ، والقرون – الأجيال – الثلاثة الأولى خير القرون ، أولها قرن الرسول . و(رسول الله ﷺ – كما يقول الإمام أحمد – هو المعبر عن كتاب الله الدال على

ذلك الكلمة التى يرددها الآخرون عن جون ستيوارت مل : (إذا كان الناس جميعا لا واحدا منهم رأى ، وكان هذا الواحد رأى مخالف لم يكن للناس جميعا حق فى اسكات صوت ذلك الواحد ، كمثل ما ليس لهذا الواحد – لو كانت السلطة فى يده – أن يسكت صوت الناس جميعا)

معانيه . شاهده فى ذلك أصحابه الذين ارتضاهم لنبيه واصطفاهم له ، فكانوا أعلم الناس برسول الله ﷺ وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم) وشاهدهم وتعلم عليهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم .

ومن المذاهب ما يعتبر عمل أهل المدينة وعلمهم أصلا فى أصوله أو يعتبر لإجماعهم القوة لمكانة « السابقة » فى الإثبات . والأمر آكد فى الإثبات إذا تواتر وعم واستمر عليه العمل .

أما ما لم يفعله السلف – مع ثبوت أصله – فالرأى من قول مالك وقول مدرسة أبى حنيفة أنهم لم يفعلوه لأمر ثبت عندهم ، وهم أحرص الناس على الخير وأعلمهم بالسنة .

رأى ابن مسعود – معلم الكوفة – قوما يجتمعون بعد العشاء ويذكرون الله جماعة رافعين بالذكر أصواتهم فقال لهم : (يا لله ! لقد جئتم « ببدعة » ظلماء ، أو لقد فقتم أصحاب محمد علما) .

والشافعية يرون أن كل ماله مستند من الشرع فليس ببدعة وإن لم يعمل به السلف ، فقد يرجع تركهم له إلى أسباب محلية أو وقتية أو لإيثار ما هو خير منه ، أو لعله لم يبلغهم جميعاً .

ومن ذلك يختلفون فى الذكر جهراً أو جماعة ، وفى الدعاء كذلك . وحجة الشافعى أنه قد ورد الترغيب فى أصله ، وإن لم يرد عن السلف فعله ، فالحجة عنده أن الشرع يدعو إلى القيام بالأمر وإن لم يبين طريق القيام به ، فهو مباح .

ومن البدع ما يكفر صاحبه ومنها ما يكتفى بتبديعه ، ومنها ما هو صريح ، وهو ما ليس له أصل شرعى فى مقابلة أمر ثابت شرعا واجب أو مندوب ، فالبدعة عندئذ تميت سنة ثبتت ، أى تحارب حقيقة إسلامية ، مثل ادعاء قوم أن بعضاً يعرف الغيب استناداً إلى الفراسة .

ومن البدع ما هو محل خلاف ، فالانتهاء عنه أنجح للمرء وأنفع للجماعة .

وخطر البدع كبير لتسربها فى المجتمع الرخو الهشيش ، وكثيرا ما انتهت بأفراده أو جماعته إلى قبول ممارسات تناقض الدين ، أو معتقدات زيوف يصطنعها بعض للتظاهر أو السيطرة . !

والصغير من البدع يؤدى إلى الكبير . وكثيراً ما تعاظمت الصغائر وتعددت وتنوعت ، فصارها خطر الكبائر . وقل أن يُقدم الفرد أو المجتمع على الكبيرة بغتة دون أن تمهد السوابق الصغيرة أو الشائعة لذلك الهجوم ، فما بالك بالبدع التى تعم بها البلوى وتشوه وجه المجتمع ، ويتعين العدول عنها إبقاء على سلامة العقيدة وسلوك الأفراد .

وكثيراً ما يكون المنكر الصغير خروجا على واجب واحد ، لكن فيه تهوينا أو تحريضا للخروج على واجبات كثيرة .

والإبعاد من الجادة إذ يبدأ بخطوة واحدة يزداد قدر ما يزداد الانحراف . ومن القطرات بدايات السيل العرم .

ومن ذلك تشدد الأئمة لاتباع الأصل ، لأنه الدليل الشرعى .

* * *

أحمد رضى الله عنه لا تعجبه الصلاة فى جلود الثعالب .

ولا يتزيا بزى النساك ، فلم يلبس الخرق ، بل كان يأتزر ويعتم فوق القلنسوة . وليس ثوبه غليظا ولا رقيقا ينكر ، وكان فى غاية النظافة .

ولا يرى أحمد شد الرحال لزيارة القبور .

ولا يرى بناء القبور مرتفعة بل يقول (مثل قبور أحد) .

وسئل عن القراءة على القبور : هل يَحفظ فيها شيئاً ؟ قال لا . وإن كان الشافعى لا يرى بها بأساً ، وكذلك إبراهيم النخعى .

ولا يرضى أحمد عن سياحة الطوافين بالبلاد يظهرون النسك بأسمالهم البالية .

فإذا نسبت إليه كرامة (بالمعنى الغيبى) هاج وماج :

فى ذات يوم مسح تلميذه على يده ثم مسح على بدنه (بدن التلميذ) ، فنظر إليه مغضبا غضبا شديدا ، وجعل ينفض نفسه ويقول : عمن أخذتم هذا ؟

ولما طلب إليه رجل أن يدعو لأمه – وهى زمنة أجاب مغضباً : نحن أحوج إلى أن تدعو لنا .

وهجر الحارث بن أسد المحاسبى (٢٤٣) وهو شيخ كثير من المتصوفة . كان يعقد مجالس للذكر فى داره ودور أصحابه . فسمع أحمد بها ، فطلب أن يراهم من حيث لا يرونه ، فلما رآهم كأن على رءوسهم الطير ، ومنهم من يبكى ، ومنهم من يزعق – بكى أحمد فى محبته وغشى عليه من البكاء . فلما انفض المجلس قال لصاحبه : ما أعلم أنى رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعت فى علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل .

وأضاف إمام المسلمين : ولا أرى لك صحبتهم .

وأحمد ينهى عن التهليل ورفع الصوت بالقراءة ، ويعتبر ذلك بدعة محدثة. وكان الشافعى من قبل يقول : (تركت شيئا بالعراق يقال له التغبير أحدثه الزنادقة يصدون به عن القرآن)

وصلى أحمد خلف إمام يجمع ثوبه إذا سجد بيده اليسرى ، فلم يقل له شيئا ، ولكن قال لصاحب بجواره : (قال النبى ﷺ : إذا قام أحدكم فى الصلاة فلا يكف شعرا ولا ثوبا) . ومضى .

وسأل الرجل صاحب أحمد عما قال له ، فأخبره وأردف قائلا : ما أحسب المعنى إلا لك !

وأحمد فى هذا كالحسن البصرى دُعِىَ إلى عرس فجىء بجام من فضة فيه طعام ، فتناول الطعام فقلبه على رغيف فأصاب منه . فهذا نبى فى سكون عن استعمال آنية الفضة .

وما هو إلا منهج النبي عليه الصلاة والسلام ، إذ كثيرا ما أصدر أمره بطريقة غير مباشرة ، كما كان يقول للناس : (أقيلوا ذوى الهيئة عثراتهم) .

وأم الدرداء تقول – وكانت من العلماء – من وعظ أخاه سراً فقد زانه ، ومن وعظه علانية فقد شانه .

وآفة النصح أن يكون جهاراً .

ويقول أحمد : النياحة من فعل الجاهلية .

ولما سئل عن الرجل يدخل ليغسل الميت ، فيسمع صوت النوح : أيدخل ليغسله وهم ينوحون ؟ فأجاب : نعم ، ولكن ينهاهم .

وسأله تلميذه حرب بن إسماعيل : الرجل يسمع النوح فيرق . قال : « ما أدرى . وروى حديث سعيد بن صالح : رأيت أبا وائل[1] يستمع النوح ويبكى .

* * *

وإذا جاز للمسلم أن يقاتل الكفار حتى يقتل جاز له ذلك أيضا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن ذلك قول الغزالى : إنه يستحب له أن يعرض نفسه للضرب بل القتل إذا كان لفعله تأثير فى رفع المنكر أوكسر لجاه الفاسق أوتقوية لقلوب أهل الدين .

روى أبو بكر المروزى – تلميذ أحمد وخادمه – أنه ذكر ابن مروان الذى صلب فى الأمر بالمعروف . فترحم عليه وقال : قد قضى ما عليه .

لكن الموعظة الحسنة للسلطان تقتضى اختيار الزمان والمكان والأسلوب والرجل . كان المهدى أكثر بنى العباس يسرا وورعا وأشدهم على أعداء الدين بأسا ، وفى إحدى حجاته طلب أن يخلى له المطاف حين طوافه بالكعبة ، فمنعه من ذلك المحتسب ، فخضع له ، فى جوار الكعبة ، ثم حبسه وحبس معه فرسا شموسا حتى قتله الفرس !

ولقد وعظ سفيان الثورى أبا جعفر المنصور فى مواجهته حتى أوصاه حاجبه بقتله ، وكان مع ذلك يوصى الآمرين بالحكمة ويخشى أن يسدر السلطان فى غيه . ولقد يكون السلطان ميئوسا منه .

سأله سائل : ألا تأتى السلطان فتأمره ؟ فأجاب إذا انبثق البحر فمن يسكره[2] !

والمؤمن ينتصر لله لا لنفسه إذ يعظ غيره ، فالانتصار لله تعبّد ، والانتصار للنفس حب للمحمدة أوخوف للمذمة أوعجب بالذات أوشهوة للشهرة . وهكذا كله غير محمود ، لأن

---

(١) جد سفيان الثورى وكان من خيار زمانه زهادة وعبادة .

(٢) يسده .

الإرادة فيه لم تتمحّض لله وحده . وإذا وجد شرك خفى فى العمل بطل (١).

وأحمد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتحمل مسئولية الأمر ، ويخاف على الناس ويوجب الستر عليهم ، ولا يشرك السلطان إلا فى الشدائد . ويؤثر الاستعانة بالجماعة : كل أولئك فى مزاج موفق بين سياسة الناس فى دنياهم وجمع كلمتهم على استنكار المنكر .

واستخدام السلطان مخطرة لابتداره بالبطش فى مواقع كثيرة قد يكون للمنطق فيها موضع .

والسلطان مُسلط عليه الكثير من فوقه ، ومغلوب على أمره بكثيرين تحته ، وبعوامل شتى منها الشهوة والصولة والاستعلاء ؛ فالاستعانة به لا تؤمن مغبتها ، وقد يكون سكوته إذ يُستعدَى سببا فى سوء فهم العامة أو تمكينا للضلال بالسلطة ، وفى الاستعانة بالسلطان تبليغ عن المنكر تمتنع بعده الشفاعة وتعلن الفضيحة . وكثيرا ما كانت درَّة السلطان قاتلة ، وكانت فضيحة الآثم مدعاة ليتولى كبره فيتردى فى وزره ، وكان أخذه بالبسر أنجح للنصحاء وأفلح للمنتصح .

سئل أحمد عن جار يرى منه الفسق والدعارة : أيرفعه إلى السلطان ؟ قال : إن علمت أنه يقيم الحد فارفعه . ونبه على أن الأمر جد فأضاف : « كان لنا جار فرفع إلى السلطان . كان قد تأذى منه جيرانه . فرفعوه فضربوه ثلاثين دره فمات » .

ووضع السيف فى موضع الندى مضر كوضع الندى موضعه : سأله تلميذه يعقوب بن بختان عن القوم يؤذونه بالغناء فأجاب : تقدم إليهم وانههم واجمع عليهم قال يعقوب : أأستعين بالسلطان ؟ فأجاب الإمام : لا . قال يعقوب : فأدع الصلاة ؟ قال الإمام « لا تضيع المسجد » فهو ينتهى بالمسجد ويبدأ الفتيا بعدم الالتجاء إلى السلطان أخذاً لكل شىء بقدره . ويرى أن

---

(١) روى أحمد أن رجلا جاء إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال له : رأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر مالـه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لا شىء له ! فأعادها ثلاث مرات يقول له الرسول لا شىء له ؛ ثم قال : (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا له) .

وسئل عن الرجل يقاتل من أجل أخيه حمية وعن رجل يقاتل لا يدفعه للقتال إلا الشجاعة والمروءة ، وعن رجل يقاتل للرياء والتظاهر ! فقال ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله) .

ويروى عنه ﷺ : (أن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ قال : قتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء . فقد قيل : ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار) .

وروى مالك أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب عليه ، فصاح به فلم يجبه ، فاسترجع رسول الله ﷺ وقال : (غلبنا عليك يا أبا الربيع) فقالت ابنته : والله إنى كنت أرجو أن تكون شهيداً فإنك قد قضيت جهازك ؛ فقال رسول الله ﷺ : (إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته) .

يجمع الناس ليروا المنكر ويشتركوا فى إنكاره ويصلحوا الفساد وهم أجمعون ، فيصلحون ويُصلحون(١).

وإذا أعلن الفاسق فسقه أو أخطأ خاطئ فى العبادة ، فلا وجه للصبر عليه . كانت لأحمد مساكن يؤجرها فبلغه بين المغرب والعشاء عن ساكن له أنه طلق امرأته ، وأنها تقيم معه . فخرج إليه وصاح به : تطلق وتقيم ؟ وأمره أن يتحول عنه وقال : انتقل .

وصلى أحمد إلى جنب رجل لا يتم الركوع ولا السجود فقال : يا هذا ، أقم صلبك فى الركوع

---

(١) وسأله سائل . إذا أمرت بالمعروف فلم يتته فإذا أصنع ؟ قال : فدعه . قد أمرته . وقد أنكرت عليه بلسانك وجوارحك . لا تخرج إلى غيره ولا ترفعه إلى السلطان يتعدى عليه .

كان أصحاب عبد الله : إذا تلاحى قوم قالوا : مهلا مهلا يرحمك الله فيكم . مهلا مهلا يرحمك الله فيكم .

ويقول أحمد فى موضع آخر : أما السلطان فلا . إذا رفعهم إلى السلطان خرج الأمر من يده ، أما علمت وصية عقبة بن عامر ؟

أما أصحاب عبد الله فأصحاب ابن مسعود حاجب النبى ﷺ سادس الستة الأولين فى الإسلام ، وإليه ترجع مدرسة الكوفة التى نتجت أبا حنيفة .

وأما عقبة بن عامر فصحابى وَلِىَ مصر لمعاوية سنوات . وهو القائل إذ أخبره رجل أن لهم جيراناً يشربون الخمر وأنه داع لهم الشُّرطة ليأخذوهم . (لا تفعل ، ولكن عظهم وتهددهم) فعمل فم ينتهوا ، فعاد إليه يريد تبليغ الشرطة فقال عقبة ويحك ! لا تفعل ؛ فإنى سمعت رسول الله يقول : (من ستر مؤمناً فكأنما استحيا موءودة من قبرها) .

وشكا رجل إلى أحمد جاراً يؤذيه بمنكر . فقال له : مره بيبك وبينه ؛ قال : أمرته مراراً وكأنه يضحك ! قال الإمام : وأى شىء عليك ؛ إنما هو يضحك على نفسه ! أنكر بقلبك ودعه .

وإذا لم يَقُم امرؤ على الإنكار على صاحب السطوة وقوى على الإنكار على ضعيف فعليه ألا يسوى بين الاثنين ، فيدع الإنكار على الضعيف من أجل ضعفه : أى عليه أن ينكر على من يقدر على رده عن المنكر وإلا أصبح الضعف قوة تأذن بارتكاب المنكر وخلقت قوة المبطل حجة على إجازة الباطل ! يقول أحمد : ينكر على الذى يقوى أن ينكر عليه .

سئل أحمد عن بيع اليهودى والنصرانى الخمر ظاهراً : فهل على المسلم شىء ؟ فقال : إذا كان ذلك من السلطان فليس يتعرض هو .

قيل : فإذا رأى مسلماً قد حمل شيئاً منه ؟ قال : المسلم يعظه . فإن أبى أهرقه .

وأكثر الناس قادرون فى أكثر الظروف على الإنكار على أكثر المنحرفين ، والنهى عن المنكر يشد ظهور المؤمنين وما أحوجهم إلى شد ظهورهم — وبرغم أنف المنافقين . وهم كثر .

يقول أحمد فى عصره ، وشتان ما عصره وعصور بعده ، إذا رأيتم اليوم شيئاً مستوياً فتعجبوا !

ويقول : يأتى على الناس زمان يكون المؤمن فيه بينهم كالجيفة ، ويكون المنافق يُشار إليه بالأصابع ! فقيل له : كيف يشار إلى المنافق بالأصابع ؟ فقال : صيرو الأمر فضولاً : المؤمن إذا رأى مرء بالمعروف أو نهياً عن المنكر لم يصبر حتى يأمر وينهى . يعنى قالوا هذا فضول ! والمنافق كل شىء يراه قال بيده على فمه (وضمها على فمه علامة على الصمت) ، فقالوا : نعم لرجل !

وإذا كان للمعروف دائماً موضع فالأمر به يحتاج إلى كيس الكيس ، أو دهاء الدهىّ . ومن الناس من ختم الله على قلوبهم وألقى الغشاوة على أبصارهم . ومن الناس من لا ينفع النصح فيهم .

وقديماً قال نجيى من كثير : موعظة الجاهل كالمعى عند رأس الميت !

والسجود وأحسن صلاتك .

وسئل عن رجل يضرب الطنبور والطبل أو نحو ذلك : أيوجب أن يغير؟ قال : أوجب . . إن غير فله فضل ، فسئل فيرفع إلى السلطان ؟ قال : تخافه ؟ قال : نعم ، قال : أنكره بقلبك . وليعلم الله ذلك منك . روى ذلك عن عبد الله بن مسعود .

فإذا انكشف المنكر فلا حرمة له : يقول أحمد : لا يمر بالخمر مكشوفا . قيل له : فإذا كان مغطى ؟ قال : لا تتعرض له إذا كان مغطى .

سئل عن الرجل يرى القنينة (يظن) أن فيها مسكرا ؟ فقال : دعه[1] وسأله أبو بكر المروزى - لو رأيت الخمر مكشوفا فى قنينة أو قربة ترى أن تكسر أو تصب ؟ قال : تكسر .

وسأله عن الطنبور إذا كان مغطى ؟ فأجاب : إذا ستر عنك فلا .

يقول أحمد لمن سأله : وإن كان العود من وراء الثوب وهو يصفه أو يبينه ؟ لا إذا كان مغطى فلا أرى له ذلك .

ومن مجموع النصوص والآثار يمكن الترخيص فى الغناء فى العرس والعيد غناء الرجولة أو المناسبة الصالحة الذى لا يترتم الفساق بمثله :

أخرج النسائى عن عامر بن سعد : دخلت على قرظة بن كعب وأبى مسعود الأنصارى فى عرس وإذا جوار يغنين فقلت : أى صاحبى رسول الله ﷺ وأهل بدر يُفعل هذا عندهم ؟ فقالا : اجلس فاسمع معنا ، وإن شئت فاذهب ، فإنه قد رخص لنا فى اللهو عند العرس .

وفى تحريم غناء النساء قال الرسول (لا تشتروا القينات ولا تبيعوهن ولا خير فى تجارتهن وثمنهن

---

(١) دخل أحمد ويحيى بن معين وأبو خيثمة دار حلف بن هشام البزار يطلبون حديثه . وهو من كبار المحدثين وله قراءة اختص بها ، لكنه كان يشرب النبيذ - أخذ أخذ من أباحه من العراقيين كالشعبى والنخعى وأبى حنيفة وإن لم يتبعه منهم أحد قط - فوجدوا بين يدى خلف قنينة نبيذ . وأقبل أحمد يسأله ، وحول ظهره إلى القنينة ، حتى إذا أرمعوا الانصراف سأله خلف : يا أبا عبد الله ، أى شىء تقول فى هذا ؟ - يقصد القنينة - قال أحمد : ليس ذلك إلىّ ، ذلك إليك ! قال خلف . كيف ؟ قال أحمد : قال النبى ﷺ : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والرجل راع فى منزله ومسئول عما فيه ، وليس للخارج أن يغير على الداخل شيئاً .

ولما خرجوا سكب خلف خابيتين ، وعاهد الله على ألا يذوقه حتى يعرض على الله عز وجل .

وتوثيق أحمد لخلف شرب أم لم يشرب - قبل متاب خلف أم بعده مظهر لاحترام الاجتهاد والاختلاف فيما هو محل للخلاف . يقول حكم من أعلم من فقهاء المعتزلة وزعماء المتصوفين : (حدثت أحمد فيمن شرب النبيذ من أهل الكوفة ، فقال : (هذه زلات لا تسقط عدالتهم) ، وإنما قصد أحمد أن زلات رأى لا سقطات فى الدين .

ويقول ابن تيمية : (فأما من فعل محرماً متأولا فلا ترد روايته فى ظاهر المذهب) .

حرام) وفى مثل ذلك نزلت (ومن الناس من يشترى لهو الحديث . . .) [1] .

وأحمد يرى أن الجارية التى تقرأ القرآن بالألحان إذا بيعت بيعت ساذجة : أى ليس لها هذه الخصيصة .

وسئل عن قراءة القرآن بالألحان فكرهها وقال : « ما يعجبنى . هو محدث » وقال « بدعة » لا يسمع . وأنكر الأحاديث التى يحتج بها فى القراءة بالألحان .

أما حديث (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) فقيل فى معنى (يتغنى) قول سفيان بن عيينة (يستغنى) وقال الشافعى : (إنما هو يتحزن ويترنم ويقرؤه حدراً (دون تمطيط) ، وتحريا . وبعض يقول : إن رفع الصوت بالقرآن هو التغنى به .

وأىّ هذا كان يتعين ألا تخرج طريقة الأمر بالمعروف عن المعروف . والله يقول (ولا تجسسوا) .

* * *

فالمحتسبة لا يتسلقون الحيطان ولا يتجسسون منها عظم المنكر إذا كان خاصا كالزنى والخمر ، فلا يجوز التجسس على ما خفى من هذه القاذورات ، لأن ضررها مقصور على أصحابها . ومن ذلك قول أحمد بن حنبل (ما غاب فلا تفتش) وإنما يجوز التجسس فيما يتصل بحياة المسلمين كفش الدواء والشراب والطعام والتآمر للقتل .

لم يكد الإمام يقضى نحبه حتى أصبحت الحنبلية شعاراً للتمسك بالدين ومقاومة البدع .

---

(١) سئل أحمد عن حديث عن عائشة فيه جواز يتغنين : إيش هذا الغناء؟ قال : غناء الركب أتيناكم أتيناكم . وهو يروى فى المسند :

عن عائشة رضى الله عنها : كانت عندنا يتيمة من الأنصار فزوجناها رجلا من الأنصار ، فكنت فيمن أهداها إلى زوجها فقال رسول الله ﷺ : (يا عائشة ، الأنصار فيهم غزل فما قلت ؟) قالت : دعونا بالبركة ، ثم انصرفوا .

قال : أفلا قلتم :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم
ولولا الحبة السمراء لم نسمن عذاريكم

ولما سئل أحمد عن لعب الحبشة فى المسجد لم يجب (الحديث أخرجه أبو داود) .

ويرى أحمد أن الدف لا يعرض له فى الإعلاك والزفاف بالغناء . ويبتسم إذ يعلم أن أبا بكر مروزى ذهب يغسل ميتاً فوجد دفاً فكسره .

قال أحمد : يكسره فى مثل الميت : أى أنه لا يرى للدف محلاً حيث تنتفى الدفوف الأخرى . وهو القائل : إذا ضربتم بالدف فلا تضربوا إلا بتسبيح وتكبير . ويرخص به فى النكاح إعلاماً به ، وهو عليم أن رسول الله ﷺ مر بجوار من بنى النجار وهن يضربن بدف لهن ويقلن :

نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد من جار

فقال : (الله يعلم أنى أحبكن) .

وشجرت الفتن بين الحنابلة وبين الآخرين ، فشكاهم صاحب الخبر إلى الخليفة . فكتب المتوكل إلى صاحب الخبر : (لا ترفع إلى شيئاً من أخبارهم ، وشد على أيديهم . فإنهم وصاحبهم من سادة أهل محمد ! وقد عرف الله لأحمد صبره وبلاءه ورفع علمه أيام حياته وبعد موته ، وأنا أظن أن الله تعالى يعطى أحمد ثواب الصديقين) .

وعمرت المساجد بالجمع والجماعات ، واختفى المفطرون فى رمضان ، وتحجبت السافرات ، وامتنعت نياحة النائحات ، وانقطع مشى الرجال والنساء فى الطرقات . وحمل أصحاب احمد على أصحاب البدع وبخاصة من يدعون دعاوى الصوفية. وشغب علام خليل (٢٧٥) عليهم العامة فاتهمتهم بالزندقة ، وسعى عند والدة الخليفة حتى سجن سبعون رجلاً منهم وهرب بعضهم وحوكم بعض آخر وقضى القاضى ببراءتهم .

وفى القرن التالى كان على بن خلف البربهارى (٣٢٩) شيخ الحنابلة ، ولما مات أمر الخليفة بدفنه إلى جواره .

يقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٢٢ (عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكسبون دور القواد والعامة ، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء . واعترضوا فى البيع والشراء ومشى الرجل مع النساء والصبيان . فإذا رأو ذلك سألوه عن الذى معه . من هو ، فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة . فأرهجوا بغداد) .

والسلطة غيور لا تقبل الشركة ، وواجبها ألا تأخذ الناس بالظنة . ومهذ وقعت الوقيعة بين الخلافة والحنابلة فأصدر الخليفة الراضى توقيعاً عنيفاً يقرأ عليهم ، وركب صاحب الشرطة ونادى فى الناس : لا يجتمع من الحنابلة اثنان . لكن الحنابلة ظلوا على طريقتهم .

وأمسى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والحفاظ على منهج السلف فى التعبد والسلوك ومقاومة البدع تراثاً للمذهب .

وسنرى بعد ، أنهم كانوا على حق فى معاجلة البدع بالردع كى لا يستفحل خطرها فيما بعد . والبدعة جرثومة تتكاثر ، فلا يقتصر أذاها على العامة وإنما يتعداهم إلى الخاصة . وينتقل من السقطى إلى فضلاء ، ومن الضعفة إلى أقوياء .